المرشد الروحي في الأرثوذكسية

الميتروبوليت كاليستوس وير

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الإرشاد والمرشِد والأبوة الروحية في الكنيسة الأرثوذكسية هي من المواضيع التي لطالما استحوذت -وما زالت- على اهتمام الكتّاب والوعّاظ والمعلمين، كما الشباب الأرثوذكسي الذي يتربّى في الكنيسة. تتأرجح مواقف معالجي هذا الموضوع ما بين التزمّت والتفلّت اللذين يسيئان إلى كل هذه الممارسة والتقليد الذي يحملها. إيجاد الأب الروحي، الذي قد يكون من أكثر المواضيع تحدياً، مع ما يتبعه من أسئلة حول الاعتراف والفرق بين الأب الروحي والأب المعرّف وغيرها؛ قضية الطاعة في الكنيسة، والتي يخلط معالجوها بين الموروث الرهباني والتراتبية المبنية على عطب؛ العلاقة بين المرشد والمرشَد، والتي تتداخل فيها الكثير من الصور المتوارثة في المجتمع؛ كل هذه النقاط وغيرها تطرّق إليها الطيب الذكر المثلّث الرحمة الميتروبوليت كاليستوس وير في هذه المحاضرة†. توجد اليوم عدة نُسَخ لأجزاء من هذه المحاضرة، والبعض منها منقول ومتوفر باللغة العربية، لكن النص التالي هو الأوسع والأكثر شمولاً (أسرة التراث الأرثوذكسي).

إذا كنا نتسلّق جبلاً لأول مرة، فنحن بحاجة إلى اتّباع طريق معروف؛ كما نحتاج أيضاً إلى أن يكون معنا، كرفيق ومرشد، شخصٌ سبق له أن صعد إلى هناك وهو على ألفة مع الطريق. أن يكون بمثابة الرفيق والمرشد هو على وجه التحديد دور "الأبّا" أو الأب الروحي؛ الشخص الذي يدعوه اليونانيون "يارونداً" والروس "ستارتس"، وهو اللقب الذي يعني في كلتا اللغتين "الرجل المتقدّم" أو "الشيخ" [١].

منذ البدايات الأولى للرهبنة المسيحية الشرقية، تم التأكيد على أهمية طاعة الشيخ. هذا ما يظهر جلياً، على سبيل المثال، في الأقوال المنسوبة إلى القديس أنطونيوس المصري: "إنني أعرف رهباناً سقطوا بعد كثير من الجهاد وانتهوا في الجنون، لأنهم وثقوا بأعمالهم الخاصة ولم يراعوا وصية القائل: 'اسأل أباك فيخبرك' (تثنية ٣٢:٧). إذا أمكن، يجب أن يعهد الراهب بالقرار في كل خطوة يقوم بها، وكل قطرة ماء يشربها في قلايته، إلى الشيوخ، وذلك لتجنب الوقوع في خطأ في ما يقوم به" [٢].

إن الحاجة إلى الإرشاد الروحي هي موضوع رئيسي في جميع أقوال آباء الصحراء: "اعتاد الشيوخ أن يقولوا: 'إذا رأيتَ راهباً شاباً يصعد إلى السماء بإرادته، فأمسكه بقدميه وارمِه، فهذا من أجل منفعته... إذا وضع شخص إيمانه في شخص آخر وسلّم نفسه للآخر في خضوع كامل، فلا داعي لأن يلتزم بوصية الله، بل هو يحتاج فقط إلى أن يضع كل مشيئته بين يدي أبيه. إذّاك يكون بلا لوم أمام الله، لأن الله لا يطلب شيئاً من المبتدئين بقدر ما يطلب تجريد الذات من خلال الطاعة" [٣].

تحتفظ صورة الشيخ هذه، التي كانت بارزة جداً في أجيال الرهبنة المصرية الأولى، بأهميتها الكاملة حتى يومنا هذا في الأرثوذكسية المسيحية. "هناك شيء واحد أكثر أهمية من جميع الكتب والأفكار الممكنة"، كما يقول علماني روسي من القرن التاسع عشر، وهو السلافوفيل إيفان كيريفسكي، "وهو مثال الشيخ الأرثوذكسي، الذي يمكنك أن تضع أمامه كل أفكارك والذي يمكنك أن تسمع منه، لا رأياً خاصاً أكثر أو أقل قيمة، بل حُسْن تقدير الآباء القديسين. المجد لله، لم يختفِ مثل هؤلاء الشيوخ من روسيانا"[٤]. كما يكتب أحد الكهنة المهاجرين الروس في القرن العشرين، الأب ألكسندر إلشانينوف: "إن مجال عملهم غير محدود... إنهم بلا شك قديسون، هكذا يعرفهم الشعب. أشعر أنه في أيامنا المأساوية، يستمر الإيمان حياً ويتقوّى في بلدنا من خلال هذا الأمر بالتحديد" [٥].

المرشد الروحي كشخصية "مواهبية"

ما الذي يخوّل شخصاً ما للتصرّف كمرشد روحي؟ كيف ومَن يعيّنه؟ هناك إجابة بسيطة على هذا. الشيخ أو الستارتس هو في الأساس شخصية نبوية و"مواهبية"، معتَرف به (أو بها) لهذه المهمة بالعمل المباشر للروح القداس. المرشدون الروحيون لا يُرسمون بأيدي بشر بل بيد الله. إنهم تعبير عن الكنيسة بكونها "حَدَثاً" أو "واقعاً"، وليس تعبيراً عن الكنيسة كمؤسسة[٦]. ومع ذلك، لا يوجد خط فاصل حاسم بين العناصر النبوية والمؤسساتية في حياة الكنيسة. كل واحد ينمو من الآخر ويتشابك معه. خدمة الشيخ، هي نفسها مواهبية، مرتبطة بوظيفة محددة بوضوح ضمن الإطار المؤسساتي للكنيسة، أي خدمة الكاهن المعرِّف. في التقليد الأرثوذكسي، لا يُمنح الكاهن الحق في سماع الاعترافات تلقائياً عند الرسامة. فقبلَ أن يقوم بدور المعرف، يحتاجُ الكاهن إلى إذن الأسقف؛ وفي الكنيسة اليونانية، لا يُسمح بذلك إلا لقلّة من الكهنة. ومع ذلك، بالرغم من أن سر الاعتراف هو بالتأكيد فرصة ملائمة للإرشاد الروحي، فإن خدمة الشيخ لا تتطابق بأي حال من الأحوال مع خدمة المعرِّف. يقدم الشيخ النُّصح، لا عند الاعتراف وحسب، بل في العديد من المناسبات الأخرى. إلى ذلك، فيما يجب أن يكون المعرِّف دائماً كاهناً، قد يكون الستارتز راهباً بسيطاً، ليس من الإكليروس، أو قد يكون حتى شخصاً عادياً؛ كما يمكن أيضاً أن تمارِسَ خدمة المشيخةِ راهبةٌ أو علمانية، إذ توجدُ في التقليد الأرثوذكسي أمهات روحيات بالإضافة إلى آباء روحيين [٧].الستارتز، سواء أكان مُساماً أم علمانياً، يتحدث غالباً ببصيرة وسلطة لا يمتلكها سوى عدد قليل جداً من الكهنة المعرِّفين.

ومع ذلك، إذا لم يكن الآباء أو الأمهات الروحيون يعيَّنون بعمل رسمي من الرئاسة [الروحية]، فكيف إذاً يشرعون بخدمتهم؟ في بعض الأحيان، يقوم أحد الشيوخ الحاليين بتعيين خليفته. وبهذه الطريقة، نشأ في بعض المراكز الرهبانية، كأوبتينو في روسيا القرن التاسع عشر، "تسلسل رسولي" للمعلمين الروحيين. في

حالات أخرى، يظهر الشيخ بشكل عفوي دون أي فعل تكليف خارجي. وكما يقول الأب ألكسندر إلشانينوف، "هكذا يعرفهم الشعب". في إطار الحياة المستمرة للجماعة المسيحية، يصبح واضحاً لشعب الله المؤمن - وهو الحارس الحقيقي للتقليد المقدس- أن هذا الشخص أو ذاك اقتنى موهبة الأبوة أو الأمومة الروحية. ثم، بطريقة حرة وغير رسمية، يبدأ الآخرون في القدوم إليه أو إليها للحصول على المشورة والإرشاد.

يلاحَظ أن المبادرة تأتي، كقاعدة، لا من المعلّم بل من التلاميذ. إنها لَغطرسةٌ بالغة الخطورة أن يقول شخص ما في قلبه أو للآخرين: "تعالوا وأخضِعوا أنفسكم لي؛ أنا شيخ وعندي نعمة الروح." ما يحدث بالأحرى هو أنّه - بدون أي ادعاء من قبل الشخص نفسه – يقاربه الآخرون طالبين إرشاده أو العيش بشكل دائم تحت رعايته. في البداية، من المرجَّح أن يصرِفَهم ويطلب منهم استشارة شخص آخر. في النهاية، تأتي اللحظة التي يكفّ فيها عن صَرفِهم، فيقبل مجيئهم إليه كإعلان عن إرادة الله. وهكذا، فإن الأبناء الروحيين هم مَن يكشفون عن الشيخ لنفسه.

تصوّر شخصية الشيخ (الييروندا أو الستارتز) المستويين المتداخلين اللذين توجد وتعمل عليهما الكنيسة الأرضية. من ناحية، هناك المستوى الخارجي والرسمي والتراتبي، بتنظيمه الجغرافي في الأبرشيات والرعايا، ومراكزها الكبرى - روما والقسطنطينية وموسكو - و "التسلسل الرسولي" عند الأساقفة. من ناحية أخرى، هناك المستوى الداخلي والروحي و "المواهبي" الذي ينتمي إليه المبتدئون بالدرجة الأولى. هنا المراكز الرئيسية في معظمها ليست مراكز رؤساء الأساقفة ولا المدن الكبرى، بل بعض المناسك البعيدة، حيث تشرق هناك بعض الشخصيات الغنية بالمواهب الروحية. معظم الشيوخ لم يكونوا في مكانة مرموقة في التراتبية الرسمية للكنيسة؛ ومع ذلك، فإن تأثير كاهن - راهب بسيط مثل القديس سيرافيم ساروف تجاوز تأثير أي بطريرك أو أسقف في أرثوذكسية القرن التاسع عشر. بهذه الطريقة، إلى جانب التسلسل الرسولي في الأسقفية، يوجد أيضاً التسلسل الرسولي للقديسين وحاملي الروح. كلا النوعين من التسلسل (succession) ضروري للعمل الحقيقي لجسد المسيح، ومن خلال تفاعلهما تتحقق حياة الكنيسة على الأرض.

الهروب والعودة: تهيئة المرشد الروحي

على الرغم من أن المرشدين الروحيين ليسوا مُسامين أو معيَّنين لأداء خدمتهم، فمن الضروري بالتأكيد أن يكونوا مهيَّئين. هناك نمط كلاسيكي لهذه التهيئة، وهي حركة الهروب والعودة التي يمكن تمييزها بوضوح في حياة القديس أنطونيوس الكبير والقديس سيرافيم ساروف، إن أخذناهما كمِثالَين فقط، مفصولَين عن بعضهما البعض بخمسة عشر قرناً.

تنقسم حياة القديس أنطونيوس بشكل واضح إلى نصفين، تمثّل سنته الخامسة والخمسون الحدَّ الفاصل بينهما. كانت السنوات من الرجولة المبكرة إلى سن الخامسة والخمسين وقت تهيئته، أمضاها في عزلة متزايدة عن العالم، حيث كان ينسحب أكثر فأكثر في الصحراء. وبحسب كاتب سيرته، فقد قضى في نهاية الأمر عشرين عاماً في حصن مهجور دون أن يلتقي بأحد على الإطلاق. عندما بلغ سن الخامسة والخمسين، لم يعد بإمكان أصدقائه كبحَ فضولهم فكسروا المدخل. خرج القديس أنطونيوس، وطوال نصف القرن المتبقي من حياته الطويلة، ومن دون التخلي عن حياة الناسك، أتاح نفسَه للآخرين مجاناً، بصفته "طبيباً وهبَهُ الله لمصر"، على حد تعبير القديس أثناسيوس كاتب السيرة. فهو يقول: "لقد كان محبوباً من الجميع، وكان الجميع يرغبون في اتخاذه أباً لهم". لاحِظوا أن الانتقال من ناسك متوحّد إلى أب روحي قد حدثَ، لا من خلال مبادرةٍ من جهة القديس أنطونيوس بل من خلال تصرف الآخرين. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن أنطونيوس كان راهباً علمانياً، ولم يُسَم للكهنوت مطلقاً.

اتبع القديس سيرافيم مساراً مشابهاً. بعد ستة عشر عاماً قضاها في حياة الجماعة الرهبانية العادية ، بصفة مبتدئ ثم راهب ثم شماس ثم كاهن، انسحب لمدة عشرين عاماً في العزلة، أولاً كناسك في الغابة ومن ثمَّ في السنوات الثلاث الأخيرة، بعد أن طلب منه رئيس الدير العودة إلى الدير، عاش منعزلاً حبيساً في قلايته. خلال جزءٍ من هذه السنوات العشرين، التقى بزوارٍ بشكلٍ عرضيٍّ، أما في الأوقات الأخرى فقد كانت عزلته شبه كاملة: في بداية المدة التي قضاها في الغابة، أمضى ألف يوم على جذع شجرة، وألف ليلة على صخرة، مُكرِّساً نفسه للصلاة غير المنقطعة؛ على مدى السنوات الثلاث الأخيرة في كوخه في الغابة، لم يتحدث إلى أحد؛ وخلال السنوات الثلاث التي قضاها حبيساً في الدير، لم يذهب إلى الكنيسة حتى للمناولة، بل كانوا يحضِرون القربان المقدس إليه عند باب قلايته. ثم في عام ١٨١٣، في سن الثالثة والخمسين، أنهى عزلته، وخصص العقدين الأخيرين من حياته لخدمة المشيخة، مُستقبِلاً كل من أتى إليه، من الرهبان أو العلمانيين على السواء. لم يفعل شيئاً للإعلان عن نفسه أو لدعوة الآخرين إليه؛ كان الآخرون هم من أخذوا زمام المبادرة في الاقتراب منه، وعندما جاؤوا - أحياناً بالمئاتِ أو حتى بالآلاف في يوم واحد - لم يرسلهم فارغين[٩].

بدون هذه التهيئة النسكية المكثفة، وبدون هذا الهروب الجذري إلى العزلة، هل كان القديس أنطونيوس أو القديس سيرافيم قادرَين على توجيه وإلهام معاصريهما بنفس الدرجة؟ لا يعني ذلك أنهما انسحبا بهدف محدد وواعٍ وهو أن يصبحا معلمَين ومرشدَين للآخرين. لقد هربا، ليس لإعداد نفسيهما لأية مهمة من هذا القبيل، بل ببساطة بدافع الرغبة الشديدة في أن يكونا وحدهما مع الله. قَبِل الله محبتهما، لكنه أعادهما بعد ذلك كأدوات للشفاء في العالم الذي انسحبا منه. حتى لو لم يعِدهما أبداً، لكانت رحلتهما ما تزال إبداعية للغاية وذات قيمة للمجتمع؛ لأن الراهبات والرهبان يساعدون العالم بشكل أساسي ليس بما يفعلونه ويقولونه ولكن بما هم عليه،

من خلال حالة الصلاة المستمرة التي - بالنسبة للبعض منهم على أي حال - تصبح متطابقة مع كيانهم الأعمق. لو لم يفعل القديس أنطونيوس والقديس سيرافيم شيئاً سوى الصلاة في العزلة لكانا ما يزالان يخدمان الآخرين إلى أعلى درجة. ولكن، كما تبيّن، قضى الله أنهما يجب أن يخدماهم أيضاً بطريقة مباشرة أكثر. ومع ذلك، لم تكن هذه الخدمة المباشرة والمرئية هدفهما الأصلي: لقد كانت إحدى الآثار الجانبية التي لم يقصداها هما نفساهما أو يتصوراها في البداية، ونتيجةً خارجية للخدمة الداخلية وغير المرئية التي كانا يقدمانها بالفعل من خلال صلاتهما.

قال القديس سيرافيم: "اقتنِ روحاً سلامية، وعندها سيخلص آلاف الآخرين من حولك" [١٠]. هذا هو نموذج الأبوة أو الأمومة الروحية. ثبّث نفسك في الله عندها يمكنك جذب الآخرين إلى حضرته. يجب أن يتعلم كل واحد أن يكون بمفرده، وهكذا في سكون قلبه يبدأ بسماع كلام الروح الخالي من الكلمات، وبالتالي اكتشاف الحقيقة عن نفسه وعن الله. عندئذ تكون كلمته للآخرين كلمة قوة، لأنها كلمة من الصمت.

على هذا النحو من خلال اللقاء مع الله في عزلة، يمكن للشيخ أن يشفي بحضوره. إنه يرشد الآخرين ويعلّمهم، ليس بكلمات النصح بشكل أساسي، بل من خلال رفقته، من خلال المثال الحي والمحدّد الذي يقدمه. إنه يعلّم بسكونه كما يعلّم بحديثه ، يعلِّمُ بحضوره بقدر ما يعلّم من خلال أي كلمة إرشاد ينطق بها. هذا هو السبب في أن الأنبا بامفو لم يجدْ سبباً ليقول أيّ شيء لرئيس الأساقفة ثيوفيلوس الإسكندري، حيث لاحظ الشيخ: "إذا لم يتقدّس بصمتي، فلن يستنير بكلماتي" [١١]. تُروى عن القديس أنطونيوس قصة لها نفس التعليم الأخلاقي: "كان لدى ثلاثة آباءٍ عادة أن يزوروا القديس أنطونيوس مرة واحدة كل عام، وكان اثنان منهم يسألانه أسئلة حول أفكارهم وخلاص نفوسهم؛ أما الثالث فكان يظل صامتاً دون طرح أي سؤال. بعد فترة طويلة قال له الأب أنطونيوس، 'انظر، لقد اعتدتَ المجيء إليّ كل هذا الوقت، ومع ذلك لا تسألني أية أسئلة.' فأجاب الآخر: 'يا أبتي، يكفي أن أنظر إليك'" [١٢].

فعلياً، إن رحلة الشيخ الحقيقية لا تتم مكانياً إلى داخل الصحراء، بل روحياً إلى داخل القلب. إن العزلة الخارجية، مهما كانت قيّمة، ليست لازِمةً لا بدَّ منها، ويمكن للإنسانِ أن يتعلّم الوقوف بمفرده أمام الله فيما هو مستمر في متابعة حياة الخدمة النشطة في وسط المجتمع. إن قصة الطبيب الإسكندري الذي كان مساوياً للقديس أنطونيوس، والذي كان طوال اليوم يرنّم التسبيح المثلث التقديس مع الملائكة [١٣]تُبيّن لنا أن الحياة النسكية و"الملائكية" ممكنة في المدينة كما في الصحراء. إن صلاة القلب غير المنقطعة ليست محصورة في عزلة الصحراء. إذْ إنَّ أمثالَ طبيب الإسكندرية قد أنجزوا الرحلة الداخلية دون قطع روابطهم الخارجية مع المجتمع.

هذا النمط من الهروب والعودة، إذن، لا ينبغي فهمه بطريقة حرفية ومحددة. ليس من الضروري التعبير عن المرحلتين [أي الهروب والعودة] بعبارات خارجية ومكانية؛ وعلى نفس المنوال، لا يمكن دائماً تمييز الهروب والعودة بشكل حاسم في تسلسل الزمني. فلنأخذ على سبيل المثال القديس إغناطيوس بريانشانينوف، المعاصر الأحدث للقديس سيرافيم، فقد تدرّب في الأصل كضابط في الجيش ثم انسحب إلى دير. ولكن بعد أربع سنوات فقط في الرهبنة، عُيّن في سن السادسة والعشرين لتولي مسؤولية جماعة ناشطة ومؤثرة بالقرب من وسط مدينة سانت بطرسبرغ. بعد أربع وعشرين عاماً كرئيس للجماعة، أصبح أسقفاً. بعد أربع سنوات استقال ليقضي السنوات الست المتبقية من حياته كناسك. وهكذا، في حالة القديس إغناطيوس، سبقت فترة طويلة من العمل الرعائي النشط والأبوة الروحية فترة العزلة الهدوئية. في الأصل، عندما عُيّن رئيساً للدير، لا بد أنه شعر بعدم الاستعداد، فانسحب سرياً إلى القلب بشكل مستمر خلال السنوات العديدة التي ترأس فيها ديراً وأبرشية؛ لكن هذا الواقع لم يأخذ تعبيره الخارجي حتى نهاية حياته. إن حياة القديس ثيوفان الحبيس تتبع نفس النمط: أولاً راعياً نشطاً، ثم ناسكاً في قلاية[١٤].

قد تكون مسيرة القديس إغناطيوس بمثابة نموذج للكثيرين منا في الوقت الحاضر، على الرغم من إدراكنا أننا دون مستوى إنجازه الروحي بكثير. تحت ضغط الظروف الخارجية، وربما دون أن ندرك بوضوح ما يحدث لنا، نتحمّل مسؤوليات التعليم والوعظ والإرشاد الرعائي، بينما تنقصنا المعرفة العميقة بالصحراء وصمتها الخلّاق. ولكن من خلال إرشاد الآخرين، قد نبدأ في التعلم. ندرك ببطء عجزنا عن مداواة جراح البشرية من خلال البرامج الخيرية والفطرة السليمة والتحليل النفسي وحسب. ينهار اعتمادنا على الذات، وندرك عدم كفاءتنا، لذا نبدأ في فهم ما قصده المسيح بـ " الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ" (لوقا ٤٢:١٠). هذه هي اللحظة التي قد يبدأ فيها الإنسان، بالنعمة الإلهية، بالتقدم على طريق المشيخة. من خلال تجربتنا الرعائية، ومن خلال توجُّعنا بسبب آلام الآخرين ، نجتاز الرحلة إلى الداخل ونبحث عن كنز الملكوت الخفي، حيث هناك فقط يمكن العثور على حل حقيقي لمشاكل العالم. لا شك أن قلَّة منا فقط، إن وُجِدت، قد يجرؤون على اعتبار أنفسهم شيوخاً بالمعنى الكامل، ولكنْ إذا ما سعَينا بإخلاصٍ متواضعٍ للدخول إلى "الغرفة السرية" في قلوبنا، فإنه يمكن لجميعنا المشاركة إلى حدٍّ ما في نعمة الأبوة الروحية أو الأمومة الروحية. قد لا نحيا أبداً في الظاهر حياة عزلة رهبانية أو نسك - وغالباً لظروف خارج سيطرتنا - ولكن ما هو فائق الأهمية هو أن يرى كل منا الحاجة إلى أن يكون ناسكاً في القلب.

مواهب المرشد الروحي الثلاثة

يتميّز المرشد الروحي بثلاث مواهب على وجه الخصوص. الأولى هي البصيرة والتمييز ، أي القدرة على إدراك أسرار قلب الآخر بشكل حدسي، وفهم الأعماق الخفية التي لا يتكلم عنها الآخر، وعادة ما يكون غير مُدرِك لها. يخترق الأب الروحي أو الأم الروحية ما وراء الإيماءات والحيل التقليدية حيث نخفي شخصيتنا الحقيقية عن الآخرين وعن أنفسنا؛ وبعيداً عن كل هذه التفاهات، فإنه يمسِك بالشخص الفريد الذي صُنع على صورة الله ومثاله. إن قوة التمييز هذه روحية وليست نفسية. إنها ليست مجرد حكّ الرأس بالظفر بلباقة، ولا هي نوعٌ من الحاسة السادسة أو الاستبصار، بل هي ثمرة النعمة التي تفترض مسبقاً صلاةً مركزة و''جهاداً نسكياً متواصلاً''. تترافق موهبة البصيرة هذه مع القدرة على استخدام الكلمات بقوة. عندما يتقدَّم أي شخصٍ إليه، يعرف الشيخ (الستارتس أو اليبروندا) فوراً وعلى وجه التحديد ما الذي يحتاج هذا الشخص سماعه. اليوم، بسبب أجهزة الكمبيوتر وآلات التصوير، تغمرنا الكلمات كما لم يحدث من قبل في تاريخ البشرية. لكن للأسف! من الجَليِّ أنَّ معظمها ليست كلماتٍ قد نُطِقَت بقوة [١٥].بالمقابل، يستخدم الشيخ القليل من الكلمات، وأحياناً لا يستخدم أي كلمات على الإطلاق؛ ولكنَّه، من خلال هذه الكلمات القليلة أو من خلال صمته، غالباً ما يكون قادراً على تغيير الاتجاه الكامل لحياة الآخر. في بيت عنيا، استخدم المسيح ثلاث كلمات فقط: " لعازر، هلمّ خارجاً" (يوحنا ١١:٤٣) ؛ ومع ذلك فإنَّ هذه الكلمات الثلاث، التي قيلت بقوة، كانت كافية لإعادة الميت إلى الحياة. في عصر ثُقِّهَت فيه اللغة بشكل مخجل، من الضروري إعادة اكتشاف قوة الكلمة؛ وهذا يعني إعادة اكتشاف طبيعة الصمت، ليس كمجرد وقفة في وسط كلامنا، بل كأحد حقائق الوجود الأساسية. من المؤكد أن معظم المعلمين والخطباء يتكلّمون كثيراً؛ يتميز الشيخ الحقيقي بتقشّف قاسٍ في استعمال اللغة [١٦].

ومع ذلك، لكي تمتلك الكلمة قوة، فإنَّه من الضروري ليس أن يوجدَ من يتحدثُ بالسُلطةِ الأصيلة للخبرة الشخصية وحسب، بل وأيضاً أن يوجد من يستمعُ باهتمامٍ وشغف. إذا كنا نسأل الشيخ بدافع الفضول البطّال، فمن المرجّح أننا سننال منفعة ضئيلة؛ ولكن إذا قاربناه بإيمان شديد وجوع عميق، فإن الكلمة التي نسمعها قد تغيّر كياننا بالكامل. إن كلمات الشيوخ هي في معظمها بسيطة من حيث التعبير اللفظي وخالية من البراعة الأدبية؛ وبالنسبة لمن يقرؤونها بطريقة سطحية، فإنها قد تبدو صبيانية وسخيفة .

تعمَل موهبة البصيرة عند الشيخ في المقام الأول في الممارسة المعروفة باسم "الكشف عن الأفكار". في الرهبنة الشرقية المبكرة كان الراهب الشاب يذهب يومياً إلى أبيه الروحي ويطرح أمامه كل الأفكار التي تراوده أثناء النهار. هذا الكشف عن الأفكار يتضمّن ما هو أكثر بكثير من مجرد اعتراف بالخطايا، لأنَّ المبتدئ يذْكرُ أيضاً تلك الأفكار والدوافع التي قد تبدو بريئة بالنسبة له، فيما قد يميِّز الأب الروحي فيها أخطاراً سريةً أو علاماتٍ مهمة. إن الاعترافُ استذكاريّ، إذْ يتعامل مع الخطايا التي حدثت بالفعل؛ من ناحية أخرى، فإن الكشف عن الأفكار وقائي، لأنه يعرّي أفكارنا قبل أن تؤدي إلى الخطيئة وبالتالي يجرّدها من قدرتها على الأذى.

إن الغرض من الكشف ليس قانونياً، لضمان الحل من الذنب، بل يهدِفُ إلى معرفة الذات، حتى نرى أنفسنا كما نحن بالفعل.

إن المبدأ الذي يقوم عليه الكشف عن الأفكار يتلخّص بوضوح في أقوال آباء الصحراء: "إذا أزعجتك أفكار نجسة، فلا تُخفِها، بل قُلها على الفور لأبيك الروحي ودِنها. بقدر ما نخفي أفكارنا تتضاعف وتكتسب القوة... [ولكن] بمجرد أن يُكشَفَ فكرٌ شرير، فإنه يتبدد على الفور... مَن يكشف أفكاره يشفى بسرعة" [١٧].

إذا كنا لا نستطيع أو لا نريد أن نخرِج إلى العلَن فكراً أو خيالاً سرياً أو خوفاً أو تجربةً، فهذا يعني أنها تملك قوة علينا. لكن إذا قُمنا، بعون الله ومساعدة مرشدنا الروحي، بإخراجِ الفكر من الظلام إلى النور، فإن تأثيره يبدأ بالتلاشي. بعد الكشف عن الأفكار، نصير في وضع يسمح لنا بالتعامل معها، ويمكن أن تبدأ عملية الشفاء.

إن الطريقة المُقترحةَ هنا من قِبَل الرهبان الأوائل لها أوجه تشابه مثيرة للاهتمام مع تقنيات التحليل النفسي والعلاج النفسي الحديثة. لكن الرهبان الأوائل وضعوا هذه الطريقة قبل خمسة عشر قرناً من فرويد ويونغ! ويوجد هناك بالطبع فارق مهم: لم يوظف الرهبان الأوائل فكرة اللاوعي بالطريقة التي يستخدمها علم النفس الحديث، على الرغم من أنهم أدركوا أنَّه من خلال فهمنا الواعي، عادةً ما نَعي جزءاً صغيراً فقط من أنفسنا.

وبموهبة التمييز التي لديه، لا يكتفي الأب الروحي بالانتظار حتى يكشف الشخص عن نفسه، بل يبادر ليكشفَ للآخَرِ كثيراً من الأفكارِ التي لا يدركها [الآخر] بعد. عندما كان الناس يأتون إلى القديس سيرافيم ساروف، غالباً ما كان يجيبهم على مصاعبهم قابل أن يتاح لهم الوقت لطرحِ ارتباكاتهم أمامه. في مناسبات عديدة، كانت الإجابة تبدو في البداية غير ذات صلة، لا بل سخيفة وغير مسؤولة؛ لأن ما كان القديس سيرافيم يجيب عنه لم يكن السؤالَ الذي كان في فكر الزائر بشكلٍ واعٍ، بل السؤالَ الذي كان ينبغي للزائر أن يسأله. اعتمد القديس سيرافيم في كل هذا على نور الروح القدس الداخلي. لقد أوضح أن من المهم ألا يحضِّر مسبقاً ما كان سيقوله؛ في تلك الحالة، قد تمثّل كلماته مجرد حكمه البشري الخاص الذي قد يكون خاطئاً، وليس حكم الله [١٨].

بنظر القديس سيرافيم، إن العلاقة بين الشيخ والابن الروحي أقوى حتّى من الموت، ولذلك حثّ أولاده [الروحيين] على الاستمرار في كشف أفكارهم له بعد رحيله إلى الحياة الأخرى. هذه هي الكلمات التي كُتبت على قبره بحسب توجيهاته: "عندما لا أعود موجوداً، تعالوا إليّ عند قبري، كلما أكثرتم المجيء كلما كان ذلك أفضل. مهما يكن ما يُثقِل نفوسكم، مهما جرى لكم، أياً تكن الأحزان التي لديكم، تعالوا إلي كما لو أنني حيّ، واركعوا على الأرض، وألقوا كل مرارتكم على قبري. أخبروني كل شيء وسأصغي إليكم، وستتلاشى كل الأحزانِ منكم. وكما تحدثتم إلي حين كنت حيّاً، قوموا بذلك الآن. لأني بالنسبة لكم حيٌّ، وسأكون كذلك إلى الأبد " [١٩].

إن الموهبة الثانية لدى الأب أو الأم الروحيين هي القدرة على محبة الآخرين وتبنّي آلامهم. يُسجَّل بإيجاز وبساطةٍ عن شيخ ورد ذكره في أقوال آباء الصحراء: "كان يقتني المحبة، وكثيرون كانوا يأتون إليه" [٢٠]. لقد اقتنى المحبة - وهذا أمر لا غنى عنه في كل أمومة وأبوة روحية. إن التبصّر في أسرار قلوب الناس، إذا كان خالياً من الرحمة المُحِبَّة، لا يكون خلاّقاً بل مدمراً؛ إذا كنا لا نستطيع أن نحب الآخرين، فلن يكون لدينا سوى القليل من القوة لشفائهم.

إن محبة الآخرين تنطوي على المعاناة معهم ومن أجلهم؛ هذا هو المعنى الحرفي لكلمة "الرحمة". "اِحْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ، وَهكَذَا تَمِّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ" (غلاطية ٦:٢): إن الأب الروحي أو الأم الروحية هما بامتياز مَن يحمل أعباء الآخرين. كتب دوستويفسكي في كتابه "الإخوة كارامازوف": "إن الشيخ هو مَن يأخذ روحك وإرادتك إلى روحه وإرادته" [٢١]. لا يكفي أن يقدم النصيحة بطريقة متجردة بل المطلوب منه هو أن يأخذ روح أبنائه الروحيين إلى روحه وحياتهم في حياته. إن واجبه هو أن يصلّي من أجلهم، وشفاعته الدائمة في سبيلهم أهم من أي كلمات مشورة [٢٢]. وعلى المنوال نفسه، فإن مهمته هي تحمُّلُ أحزانهم وخطاياهم، وأخذ ذنوبهم على عاتقه، والإجابة عنهم في يوم الدينونة الأخيرة. يشدِّد القديس برصنوفيوس الغزاوي على أبنائه الروحيين: "كما يعلَمُ الله نفسه، لا توجد ثانية أو ساعة لا تكونون فيها في ذهني وفي صلاتي...إنِّي أُحمِّل نفسي حكم دينونتكم. وبنعمة المسيح لن أتخلى عنكم لا في هذا الدهر الحاضر ولا في الدهر الآتي" [٢٣]. وبحسب تعبير زوسيما شيخ دوستويفسكي [في رواية الإخوة كارامازوف]: "توجد طريقة واحدة فقط للخلاص، وهي أن تجعل نفسك مسؤولاً عن خطايا الجميع... أن تجعل نفسك مسؤولاً بكل إخلاص عن كل شيء وكل شخص" [٢٤]. إن قدرة الشيخ على دعم الآخرين وتقْويتِهم تُقاس بالضبط بمدى استعداده لتبني طريقة الخلاص هذه.

ومع ذلك، إن العلاقة بين الأب الروحي وأبنائه ليست من طرف واحد. على الرغم من أنه يحمل عبء ذنبهم على عاتقه ويجيب عنهم أمام الله، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بشكل فعال إلا إذا كانوا هم أنفسهم يجاهدون بإخلاص من جهتهم. ذات مرة جاء أخ إلى القديس أنطونيوس المصري وقال: "صلِّ لأجلي". فأجاب الشيخ: "لا أنا سأشفق عليك ولا الله، إلا إذا بذلت مجهوداً من عندك" [٢٥].

عند التفكير بمحبة المرشد للتلميذ، من المهم إعطاء المعنى الكامل لكلمة "أب" أو "أم" في لقب "الأب الروحي" أو "الأم الروحية". كما أن الأب والأم في الأسرة العادية مرتبطان بنسلهما في محبة متبادلة، كذلك يجب أن يكون الأمر في عائلة الشيخ "المواهبية". لا داعي للقول أنَّه، بما أن الرابطة بين الشيخ والتلاميذ ليست علاقة بحسب الجسد بل بالروح القدس، فإن منبع المودة البشرية، بدونِ تجفيفه بقسوة، يجب أن يتجلّى؛ وقد يتخذ هذا التجلّي أحياناً أشكالًا تبدو للمراقب الخارجي غير إنسانية إلى حدٍّ ما. يُروى، على سبيل

المثال، كيف أن راهباً شاباً اعتنى بشيخه الذي كان مريضاً جداً لمدة اثني عشر عاماً دون انقطاع. لم يشكره الشيخ خلاله هذه المدة مُطلقاً ولا حتّى وجّه إليه كلمة طيبة واحدة. فقط على فراش الموت قال الشيخ للإخوة المجتمعين "إنَّه ملاك وليس إنساناً" [٢٦]. لهذه القصص قيمة كمؤشرٍ على الحاجة لعدم التعلّق الروحي، لكنهابالكاد نموذجية. إن الضبط الذي لا مساومة فيه لجميع أمارات المودة الخارجية ليس من سمات أقوال آباء الصحراء، خاصةً لشيخي غزة برصنوفيوس ويوحنا.

الموهبة الثالثة التي للأب والأم الروحيين هي القدرة على تغيير البيئة البشرية، المادية وغير المادية. إن موهبة الشفاء التي يمتلكها الكثير من الشيوخ هي إحدى جوانب هذه القدرة. بشكل عام، يساعد الشيخ تلاميذه على إدراك العالم كما خلقه الله وكما يريده الله مرة أخرى أن يكون. الشيخ الحقيقي هو الذي يميّز الحضور الشامل للخالق من خلال الخليقة، ويساعد الآخرين على تمييزه بالمثل. إنه يُحقِّق، في نفسه كما في الآخرين، التحول الذي يتحدث عنه ويليام بليك: "لو نُقِّيَت أبواب الإدراك، لبدى كل شيءٍ للإنسان كما هو؛ أبديّ" [٢٧]. بالنسبة لِمَن يُقيم في الله، لا يوجد شيء وضيع وتافه: هي أو هو يرى كل شيء في ضوء جبل ثابور. تظهر لمحة سريعة عن مدلول ذلك في ما رواه نيكولاس موتوفيلوف عن حواره مع القديس سيرافيم ساروفسكي، عندما رأى نيكولا وجه الشيخ متألقاً تألُّقَ شمس منتصف النهار، فيما كان الضوء الساطع يشعّ من جسده وينير الأشجار المغطاة بالثلوج في تلك الفسحة من الغابة حولهم [٢٨].

الطاعة والحرية

هذه هي، بنعمة الله، مواهب الشيخ. لكن ماذا عن الابن الروحي؟ كيف يساهم في العلاقة المتبادلة بين المرشد والتلميذ؟

باختصار، ما يقدمه التلميذ هو صادق وطوعي؛ الطاعة. كمثال كلاسيكي، هناك قصة في أقوال آباء الصحراء عن الراهب الذي طُلِبَ منه أن يزرع عصا جافة في الرمال ويسقيها يومياً. كان النبع بعيداً جداً عن قلايته لدرجة أنه كان يضطر إلى المغادرة مساءً لجلب الماء وكان لا يعود إلا في صباح اليوم التالي. ظلَّ لمدة ثلاث سنوات يتمّم وصية أبيه [الأبّا] بصبر. في نهاية هذه الفترة، أخرجت العصا فجأةً أوراقاً وأثمرت. قطف الأب الثمرة، وذهب بها إلى الكنيسة، ودعا الرهبان إلى الأكل قائلاً: "خذوا وكلوا ثمر الطاعة" [٢٩].

مثال آخر على الطاعة هو الراهب مرقس الذي ناداه أبوه فجأة فيما كان ينسخ مخطوطة؛ كان رده فورياً حتّى أنه لم يكمل تدوير الحرف O الذي كان يكتبه. وفي مناسبة أخرى، فيما كانا يسيران معاً، رأى الأبّا خنزيراً صغيراً؛ فقال مُختبِراً مرقس: "هل ترى ذلك الجاموس يا بنيّ؟" أجاب مرقس: "نعم يا أبي". "وهل ترى مدى روعة قرنيه؟". أجاب مجدداً من دون تردد"نعم يا أبي" [٣٠]. كان الأبّا يوسف من بانيفو يتّبع سياسة مماثلة

لاختبار طاعة تلاميذه بتحديد مهام متناقضة لا بل مخزية، وفقط إذا امتثلوا يعطيهم أوامر معقولة [٣١]. أمر شيخ آخر تلميذه ان يسرق أشياء من قلالي الإخوة [٣٢] فيما أخبر آخر تلميذه (الذي لم يكن صادقاً معه تماماً) أن يلقي بابنه في الأتون [٣٣].

عند هذه النقطة، من الضروري بالتأكيد أن نعلن بوضوح بعض الاعتراضات الجدّية. قد تترك بعض القصص من النوع الذي ذكرناه انطباعاً متناقضاً للغاية لدى القارئ المعاصر. أليست تصف نوعاً من السلوك الذي قد نُعجب به على مضض، ولكن يَصعُبُ أن نرغب في تقليده؟ وقد نسأل ببعض السخط، ما الذي حدث لـ " حرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ" (رومية٨:٢١)؟

قلَّةٌ منَّا قد يشكُّون في قيمة طلب الإرشاد من شخص آخر، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ذي خبرة تفوق خبرتنا في الطريق الروحي. ولكن هل ينبغي التعامل مع مثل هذا الشخص وكأنه صاحب وحي معصوم ويجب أن تطاع كل كلمة منه دون أي نقاش؟ إن تفسير العلاقة المتبادلة بين التلميذ والأم أو الأب الروحيين بهذه الطريقة يبدو خطيراً لكليهما. إن ذلك يُحدِر التلميذ إلى مستوى طفولي وحتى دونَ البشر، مما يحرمه من كل قوة للحكم والاختيار الأخلاقي؛ ويشجّع المعلم على المطالبة بسلطة هي لله وحده. في وقت سابق اقتبسنا من أقوال آباء الصحراء أن من يخضع لطاعة شيخ "لا يحتاج لأن يلتزم بوصية الله" [٣٤]. لكن هل هذا التنازل عن المسؤولية مرغوب فيه؟ هل ينبغي السماح للشيخ باغتصاب مكان المسيح؟

كَرَدٍّ على ذلك، ينبغي القول أولاً وقبل كل شيء أن الشيوخ "المواهبيين"، مثل القديس أنطونيوس الكبير أو القديس سيرافيم ساروفسكي، لطالما كانوا نادرين للغاية. لم يكن نوع العلاقة التي تربطهم بتلاميذهم، سواء أكانوا رهبانًا أم علمانيين، هو النمط المعياري في التقليد الأرثوذكسي. إن الشيوخ الكبار، سواء كانوا في الماضي أم الحاضر، يشكلون بالفعل نوراً إرشادياً ونقطة مرجعية عليا؛ لكنهم الاستثناء وليسوا القاعدة.

ثانياً، هناك فرق واضح بين الرهبان الذين قطعوا نذراً خاصاً بالطاعة، وبين الناس العاديين الذين يعيشون في "العالم". (حتى في حالة الرهبان، هناك عدد قليل للغاية من الجماعات التي توجد فيها خدمة المشيخة في شكلها الكامل، كما هو موصوف في أقوال آباء الصحراء أو كما كان متَّبعاً في أوبتينو في القرن التاسع عشر). كاهنٌ روسيٌّ معاصر، وهو الأب ألكسندر مِن – الذي كان هو نفسُه محترماً كأب روحي قبل موته المأساوي والمفاجئ على يد مجهول في عام ١٩٩٠- أصر بحكمة على أن الالتزامات الرهبانية لا يمكن نقلها بالجُملة إلى حياة الرعية: "غالبًا ما نعتقد أن علاقة الابن الروحي بالأب الروحي تشترط أن يكون الأول [الابن] مطيعاً للأخير [الأب] دائماً. في الواقع، هذا المبدأ هو جزء أساسي من الحياة الرهبانية. ينذر الراهب أن يكون مطيعاً، وأن يفعل كل ما يطلبه أبوه الروحي. لا يستطيع كاهن الرعية أن يفرض مثل هذا النموذج على العلماني، ولا

يستطيع أن يعطي لنفسه الحق في إصدار أوامر قطعية. يجبُ أن يسعد بتذكر قواعد الكنيسة، موجهاً حياة أبناء رعيته، ومساعداً إياهم في جهاداتهم الداخلية" [٣٥].

ومع ذلك، عندما تتم مراعاة هاتين النقطتين بالكامل، هناك ثلاثة أمور أخرى يجب أن تُقال ليتم إعطاء تفسير صحيح لنصٍّ مثل أقوال آباء الصحراء، أو لشخصيةٍ مثل الشيخ زوسيما في "الإخوة كارامازوف". أولاً، إن الطاعة التي يقدمها الابن الروحي للأبّا ليست قسرية بل إراديةً وطوعيةً. إنها مهمة الشيخ أن يأخذ إرادتنا في إرادته، لكن لا يمكنه فعل ذلك إلا إذا وضعناها [إرادتنا] بين يديه باختيارنا الحر. إنه لا يكسر إرادتنا، بل يتقبلها منا كهدية. من الواضح أن الخضوع القسري وغير الطوعي يخلو من القيمة الأخلاقية؛ يطلب الشيخ من كل واحد أن يقدم قلبه لله وليس أفعاله الخارجية. حتى في الرهبنة، تكون الطاعة طوعية، كما هو مؤكد في طقس السيامة الرهبانية بشكل واضح: لا يشرع رئيس الدير في حلق رأس المريد قبل أن يضع الأخير المقصَّ ثلاث مرات في يده.

من الواضح مع ذلك أن هذا التخلي الطوعي عن حريتنا، حتى في دير، ليس أمراً يمكن القيام به مرة واحدة وإلى الأبد، وبمبادرة واحدة. إننا مدعوون لحمل صليبنا كل يوم (لوقا ٢٣:٩).لا بد من تضحية مستمرة تدوم طوال حياتنا. يُقاس نمونا في المسيح تحديداً بتزايد درجة بذلنا لذواتنا. ينبغي تقديم حريتنا مجدداً كل يوم وكل ساعة، بطرق متنوعة باستمرار؛ وهذا يعني أن العلاقة بين الشيخ والتلميذ ليست جامدة بل متحركة (ديناميكية)، وليست ثابتة بل متنوعة بلا حدود. في كل يوم وكل ساعة، بتوجيه من الأبّا، يواجه التلميذ مواقف جديدة تتطلب استجابة مختلفة، نوعاً جديداً من بذل الذات.

ثانياً، إن العلاقة بين الشيخ والابن الروحي، كما سبق وأشرنا، ليست أحادية الجانب بل هي علاقة متبادلة. مثلما يمكّن الشيخ التلاميذ من رؤية أنفسهم كما هم حقاً، كذلك فإن التلاميذ هم من يكشفون الشيخَ لنفسِه. في معظم الحالات، لا يدرك شخص ما أنه مدعو ليكون شيخاً إلى أن يأتي إليه الآخرون ويصرّون على وضع أنفسهم تحت إرشاده. تستمر هذه التفاعلية طوال العلاقة بين الاثنين. لا يمتلك الأب الروحي برنامجاً مُفصَّلاً قد تمّ إعداده بدقةٍ مسبقاً ليُفرَض بنفس الطريقة على الجميع. بل على عكس ذلك، إذا كان شيخاً بِحقٍّ، تكون عنده كلمة مختلفة لكل واحد؛ إنه ينهج، لا على أساس قواعد مجردة، بل على أساس حالات إنسانية ملموسة. يدخلُ هو وتلميذه في كل موقف معاً، ولا يعرف أي منهما مسبقاً ما ستكون عليه النتيجة بالضبط، وإنما ينتظر كلٌّ منهما استنارة الروح. على كليهما، الأب الروحي كما التلميذ، أن يتعلما فيما هما يسيران.

إن التبادلية في علاقتهما تبيِّنها قصص في أقوال الآباء الشيوخ حيث يخلُص أبٌّ غير مستحق بصبر وتواضع تلميذه. فأحد الإخوة، على سبيل المثال، كان له شيخ مستسلم للسُكر، وكان [الأخ] يُجرّب بشدة لكي يتركَه؛ لكنه بدلاً من ذلك بقي مع أبيه بإخلاصٍ إلى أن تاب هذا الأخيرُ في نهاية الأمر. كما يعلق الراوي: "في بعض

الأحيان يكون الشباب هم مَن يرشدون شيوخهم إلى الحياة" [٣٦].قد يكون التلميذ مدعواً لأن يُعطي كما لأن يأخذ. في كثير من الأحيان قد يتعلّم المعلّم من تلاميذه. يرِد في التلمود: "اعتاد الحاخام حنينا أن يقول 'لقد تعلمتُ الكثير من أساتذتي، أكثر مما تعلمت من زملائي الطلاب، ولكن تعلمت من تلاميذي أكثر من من الكل'" [٣٧].

مع ذلك، ليست هذه العلاقة في الحقيقة ثنائية الجانب بل ثلاثية، إذ بالإضافة إلى الأب وتلميذه، هناك أيضاً شريك ثالث؛ الله. أكَّدَ ربنا على ألا ندعوَ أي أحد "أباً"، لأن لنا أباً واحداً، وهو في السماء (متى ٨:١٣-١٠). ليس الأب قاضياً معصوماً أو محكمة استئناف نهائية، ولكنه خادم للإله الحي؛ ليس طاغية بل مرشداً ورفيقاً في الطريق. إن "المرشد الروحي" الحقيقي الوحيد، بكل معنى الكلمة، هو الروح القدس.

هذا يقودنا إلى النقطة الثالثة. في التقليد الأرثوذكسي في أفضل حالاته، دائماً ما سعى المرشدون الروحيون إلى تجنّب أي نوع من القيد والعنف الروحي في علاقاتهم مع تلاميذهم. إذا كانوا، بإرشاد الروح، يتكلّمون ويعملون بسلطان، فذلك بسلطة المحبة المتواضعة. في توقهم إلى تجنب جميع القيود الآلية، فإنهم قد يرفضون أحياناً تزويد تلاميذهم بقانون حياة، أي بمجموعة من الأوامر الخارجية يطبّقونها أوتوماتيكياً. بحسب تعبير راهب روماني معاصر، فإن الأب الروحي "ليس مشرّعًا بل معلماً للأسرار" [٣٨] يهدي الآخرين، لا بفرض القواعد، بل بمشاركة حياته معهم. قال راهب للأنبا بيمن: "جاء بعض الإخوة ليعيشوا معي، هل تريد مني أن أعطيهم الأوامر؟" قال الشيخ "لا". أصرّ الراهب: "لكن يا أبي، هم أنفسهم يريدون مني أن أعطيهم الأوامر". كرر بيمن: "لا، كنْ قدوةً لهم لا مُشرِّعاً" [٣٩]. يُستَخلَص نفس التعليم من قصةٍ رواها اسحق الكاهن. عندما كان شاباً، مكث أولاً مع الأنبا كرونيوس ثم مع الأنبا ثيودور من فارمي Pherme؛ لكن أي منهما لم يخبره بما يجب أن يفعله. اشتكى إسحق إلى الرهبان الآخرين فجاؤوا واحتجوا إلى ثيودور. في النهاية أجاب ثيودور: "إذا رغب في ذلك، فليفعل ما يراني أفعله" [٤٠]. عندما طُلب من برصنوفيوس وضع قانون حياةٍ تفصيلي، رفض قائلاً: "لا أريدكم أن تكونوا تحت الناموس، بل تحت النعمة". وفي رسائل أخرى كتب: "أنت تعلم أننا لم نفرض قيوداً على أحد أبداً... لا ترغم إرادة الناس الحرة، بل ابذر برجاء؛ لأن ربنا لم يجبر أحداً، بل بشر بالبشارة ، وأولئك الذين رغبوا سمعوا له" [٤١].

لا ترغم إرادة الناس الحرة. إن مهمة أبينا الروحي ليست تدمير حريتنا، بل مساعدتنا على رؤية الحقيقة بأنفسنا؛ لا لقمع شخصيتنا، بل لتمكيننا من اكتشاف ذاتنا الحقيقية، والنمو حتى النضج الكامل وأن نصبح ما نحن عليه حقاً. إذا طلب الأب الروحي أحيانًا من تلميذه طاعة ضمنية و"عمياء" ظاهرياً، فإن هذا لا يكون أبداً غاية بحد ذاته، ولا يهدف إلى استعباده. الغرض من هذا النوع من "العلاج بالصدمة" هو ببساطة تخليص التلميذ من "ذاته" الزائفة والوهمية، حتى يتمكن من ولوج الحرية الحقيقية؛ إن الطاعة بهذه الطريقة هي باب

الحرية. لا يفرض الأب الروحي أفكاره وولاءاته الشخصية، لكنه يساعد التلميذ في العثور على دعوته الخاصة. بحسب تعبير دوم أوغسطين بيكر البينديكتيني من القرن السابع عشر: "ليس على المرشد أن يعلّم طريقته الخاصة، ولا في الواقع أي طريقة محددة للصلاة، بل أن يوجّه تلاميذه كيف يمكنهم أن يكتشفوا بأنفسهم الطريقة المناسبة لهم. باختصار، إنه فقط هادٍ إلى الله، ويجب أن يقود النفوس في طريق الله، لا في طريقه" [٤٢]

هذا كان نهج الأب الكسندر مين أيضاً. على حد تعبير كاتب سيرته الذاتية إيف هامنت: "أراد الأب ألكسندر أن يقود كل شخص إلى نقطة اتخاذ القرار بنفسه؛ لم يكن يريد أن يأمر أو يفرض. لقد شبّه دوره بدور القابلة التي تكون حاضرة فقط لمساعدة الأم كي تلد بنفسها طفلها. وكتب أحد أصدقائه أن الأب الكسندر 'كان فوقنا ولكن بجانبنا تماماً'" [٤٣].

إذن، في الملاذ الأخير، ما يمنحه الأم أو الأب الروحيان للتلميذ ليس مجموعة قواعد مكتوبة أو شفهية، ولا هو مجموعة من تقنيات التأمل، بل علاقة شخصية. ضمن هذه العلاقة الشخصية، ينمو الأب ويتغيّر مثله مثل التلميذ، لأن الله يوجههما باستمرار. قد يزوّد الأب في بعض الأحيان تلميذه بتعليمات شفهية مفصّلة، مع إجابات دقيقة على أسئلة محددة. وفي حالات أخرى، قد يفشل في إعطاء أي إجابة على الإطلاق، إما لأنه يعتقد أن السؤال لا يحتاج إلى إجابة، أو لأنه هو نفسه لا يعرف بعدُ ما يجب أن يكونه الجواب. لكن هذه الإجابات - أو هذا الفشل في الإجابة - يتمّ تقديمهما دائماً في إطار علاقة شخصية. هناك أمورٌ كثيرة لا يمكن قولها في كلمات، بل يمكن نقلها فقط من خلال لقاء شخصي مباشر. وكما أكّد المعلم الحسيدي الحاخام جاكوب يتسحاق: "لا يمكن تعلم الطريق من كتابٍ أو من القيل والقال، بل يمكن إيصالها فقط من شخص لآخر" [٤٤].

نتطرق هنا إلى أهم نقطة على الإطلاق، وهي الشَخصانِيَّة التي تلهم اللقاء بين التلميذ والمرشد الروحي. هذا الاتصال الشخصي يحمي التلميذ من التقيد بالشرعية الصارمة، ومن الخضوع العبودي لنص القانون. إنه يتعلم الطريق، ليس بالامتثال الخارجي لقواعد مكتوبة، بل من خلال رؤية وجه بشري وسماع صوت حي. وبهذه الطريقة، يكون الأم أو الأب الروحيان أُمناء على الحرية الإنجيلية.

في غياب الستارتس

وماذا نفعل إذا لم نجد مرشداً روحياً؟ إذ، كما أشرنا، فالمرشدون على مثال القديس أنطونيوس أو القديس سيرافيم قليلون ومتباعدون. قد نلجأ في المقام الأول إلى الكتب. في روسيا القرن الخامس عشر، يكتب القديس نيل سورسكي متأسفاً على الندرة الشديدة للمرشدين الروحيين المؤهلين [في زمنه]؛ ومع ذلك، فكم

كانوا بكل تأكيد أكثر حضوراً في أيامه مما هم عليه في أيامنا! ويحثّ القديس على البحث بجدٍ عن مرشد أكيد وموثوق. ثم يتابع: "ومع ذلك، إذا تعذَّر إيجاد مثل هذا المعلم، يأمرنا الآباء القديسون بالرجوع إلى الكتاب المقدس والاستماع إلى ربنا نفسه وهو يتحدث"[٤٥]. بما أنه لا ينبغي أبداً عزل شهادة الكتاب المقدس عن شهادة الروح المستمرة في حياة الكنيسة، يمكننا أن نضيف أن الطالب سيريد أيضاً قراءة أعمال الآباء، وفوق كل ذلك الفيلوكاليا. لكن هناك خطراً واضحاً هنا. يكيّف الستارتز توجيهاته مع الحالة الداخلية لكل واحد؛ أمَّا الكتب فتقدّم نفس النصيحة للجميع. كيف لنا أن نميّز ما إذا كان نصٌّ معين ينطبق على وضعنا الخاص؟ حتى لو لم نتمكن من العثور على أب روحي بالمعنى الكامل، يجب أن نحاول على الأقل العثور على شخص أكثر خبرة منا، وقادراً على إرشادنا في قراءتنا.

من الممكن أن نتعلم أيضاً من زيارة الأماكن التي ظهرت فيها النعمة الإلهية بشكل استثنائي وحيث، بحسب عبارة تي إس إليوت، "تكون الصلاة صالحة". قبل اتخاذ قرار رئيسي، وفي غياب أي إرشاد آخر، يذهب العديد من المسيحيين الأرثوذكسيين في رحلة حج إلى أورشليم أو جبل آثوس، إلى دير أو ضريح قديس، حيث يصلّون طلباً للاستنارة. هذه هي الطريقة التي تبعتها أنا نفسي وتوصلت بها إلى اليقين بخصوص أكثر القرارات صعوبةً في حياتي.

ثالثًا ، يمكننا التعلم من الجماعات الدينية ذات التقاليد الراسخة في الحياة الروحية. في غياب معلم شخصي، يمكن للبيئة الرهبانية نفسِها أن تقوم بدور "أبًا"؛ يمكن أن ننال تنشئتنا من التسلسل المنظّم للبرنامج اليومي، بما فيه من فترات الصلاة الليتورجية و الصامتة، والتوازن بين العمل اليدوي والدراسة والاستراحة. يبدو أن هذه هي الطريقة الرئيسية التي بها اكتسب القديس سيرافيم ساروف تدريبه الروحي. إن ديراً حسن التنظيم يجسّد، بشكل حيويٍّ ويسهل الوصول إليه، الحكمة الموروثة من العديد من الشيوخ. ليس الرهبان فقط، بل أيضاً الذين يأتون كزوار، ويبقون لفترة أطول أو أقصر، يمكن أن يؤسَّسوا ويوجَّهوا من خلال خبرة حياة الجماعة.

١. في الحقيقة، ليس من قبيل المصادفة أن ظهور شكل الأبوة الروحية "المواهبية" التي وصفناها قبلاً في مصر في القرن الرابع، لم يكن ضمن الجماعات المنظمة بالكامل في عهد القديس باخوميوس، بل بين النساك وفي أوساط نيتريا وسكيثيا النصف شركوية. توفّر الشركة الباخومية التوجيه الروحي الذي أعطاه القديس باخوميوس نفسه عبر متقدمي كل دير، ورؤساء "القلالي" الفردية ضمن الدير. يحدد قانون القديس بنديكتوس أن يكون رئيس الدير أباً روحياً، ولا يوجد عملياً أي بند لمزيد من التوجيه من نوع أكثر "مواهبية"[٤٦]ـ صحيحٌ أن جماعات الشركة قد أدرجت مع الوقت العديد من

تقاليد الأبوة الروحية التي تطوّرت بين النساك، لكن الحاجة إلى هذه التقاليد لطالما كانت أقل حدةً في الشركة، وذلك تحديداً لأن الإرشاد متوفّر من خلال حياة الجماعة التي تجري بحسب القانون الرهباني.

أخيراً، قبل ترك هذا السؤال حول غياب الشيخ، من المهم بالنسبة لنا التأكيد على المرونة القصوى في العلاقة بين المرشد الروحي والتلميذ. قد يرى البعض مرشدهم الروحي كل يومٍ أو حتى كل ساعة، يصلون ويأكلون ويعملون معه، وربما يتشاركون نفس القلاية، كما كان يحدث في الغالب في الصحراء المصرية. آخرون قد يرون [مرشدهم الروحي] فقط مرة واحدة في الشهر أو مرة واحدة في السنة؛ كما قد لا يزور البعض أباً إلا في مناسبة واحدة فقط في حياتهم كلها، ومع ذلك فقد يكون هذا كافياً لوضعهم على الطريق الصحيح. إلى ذلك، هناك أنماط مختلفة من الآباء أو الأمهات الروحيّات؛ قليلون هم صانعو العجائب مثل القديس سيرافيم ساروف. هناك العديد من الكهنة والعلمانيين الذين، فيما هم يفتقرون إلى مواهب الشيوخ المشهورين الباهرة، إنما هم قادرون بالتأكيد على تزويد الآخرين بالإرشاد الذي يحتاجونه. علاوة على ذلك، لا ننسينّ أبداً أنه إلى جانب الأبوة والأمومة الروحية، هناك أيضًا أخوّة روحية. غالباً ما نتعلم في المدرسة أو الجامعة من زملائنا الطلاب أكثر مما نتعلم من معلمينا؛ وقد يحدث نفس الشيء أيضاً في حياتنا في الصلاة والاستكشاف الداخلي.

عندما يتخيل الناس أنهم فشلوا في بحثهم عن مرشد، فغالباً ما يكون هذا لأنهم يتوقّعون منه أو منها أن يكونا من نمط معيّن؛ إنهم يريدون القديس سيرافيم [أي أباً على مثال القديس سيرافيم]، ولذلك يغمضون أعينهم عن المرشدين الذين يرسلهم الله إليهم بالفعل. غالباً ما تكون مشاكلهم المفترضة غير معقدة، وفي واقع الأمر، إنهم يعرفون الإجابة في قلوبهم بالفعل. لكنهم لا يحبّون الإجابة، لأنها تنطوي على جهد صبور ومتواصل من جانبهم؛ ولذا فهُم يبحثون عن "آلة خارقة" يجعل فجأة كل شيءٍ سهلاً بكلمةٍ عجائبية واحدة. مثلُ هؤلاء الأشخاص هم بحاجة إلى المساعدة لفهم طبيعة الإرشاد الروحي الحقيقية.

أمثلة معاصرة

في الختام، أود أن أذكر اثنين من شيوخ أيامنا هذه، ممَّن كان لي شرف وسرورُ معرفتهما شخصياً. الأول هو الأب أمفيلوخيوس (†١٩٧٠)، الذي كان في يوم من الأيام رئيساً لدير القديس يوحنا في جزيرة بطمس، وبعد ذلك شيخاً لجماعة راهبات كان قد أسسها ليس بعيداً عن الدير. أكثر ما ميّز شخصيته هو لطفه، وروح الدعابة، ودفء عاطفته، وإحساسه بالبهجة الهادئة ولكن الظافرة. كانت ابتسامته مليئة بالمحبة، ولكنْ خالية من كل عواطفية. الحياة في المسيح، كما فهمها، ليست نيراً ثقيلاً، وعبئاً يجب تحمّله باستكانة كئيبة، بل هي علاقة شخصية يجب متابعتها بلهفة قلب. كان يعارض بشدة كل أعمال العنف والقسوة الروحية. كان أمراً طبيعياً

[منه]، بينما كان يحتضر ويوشك على مفارقة الراهبات اللواتي كُنَّ تحت رعايته، أن يحثَّ الرئيسة على ألا تكون قاسية على الراهبات: "لقد تركن كل شيء ليأتين إلى هنا، يجب ألا يكنّ غير فرِحات" [٤٧].

هناك شيئان على وجه الخصوص أتذكرهما عنه. الأول كان محبته للطبيعة وبالأخص الأشجار. كان يقول: "أتعلَمُ أن الله أعطانا وصية أخرى غير مسجلة في الكتاب المقدس؟ إنها وصية: أحبَّ الأشجار". كان مقتنعًا أن من لا يحب الأشجار لا يحب المسيح. عندما كان يستمع لاعترافات المزارعين المحليين، كان يكلفهم بمهمة غرس شجرة ككفارة؛ ومن خلال هذا التأثير، فإن العديد من جوانب تلّ بطمس، والتي كانت ذات يوم صخوراً قاحلة، أصبحت الآن خضراء مورقة كل صيف [٤٨].

الأمر الثاني الذي أتذكره بشكل بارز هو المشورة التي قدمها لي عندما كنت حديث الرسامة، وقد حان وقت عودتي من بطموس إلى أكسفورد، حيث كنت سأبدأ التدريس في الجامعة. هو نفسُه لم يزر الغرب أبداً، لكن كان عنده تصوّر ألمعي لوضع الأرثوذكسية في الشتات. كان يقول مؤكداً "لا تخافوا". قال لي لا تخَف بسبب أرثوذكسيتك؛ لا تَخَف لأنك، بصفتك أرثوذكسياً في الغرب، غالباً ما ستكون معزولًا وضمن أقلية صغيرة دوماً. لا تقدِّمْ تنازلات ولكن لا تهاجم المسيحيين الآخرين؛ لا تكن دفاعياً أو عدوانياً؛ بل ببساطة كن على طبيعتك.

مثالي الثاني عن شيوخ القرن العشرين الذين عرفتهم شخصياً هو القديس يوحنا ماكسيموفيتش (✝١٩٦٦)، الأسقف الروسي في شنغهاي، ثم في أوروبا الغربية، وأخيراً في سان فرانسيسكو. وهو أطول بقليل من قزم، له شعر متشابك ولحية، وإعاقة في الكلام. للوهلة الأولى، بدا أن لديه أكثر من واحدة من مَسَحات "المتبالِه في المسيح". منذ أن صار راهباً، لم يستلقِ على سرير إلا في حالة المرض؛ كان يواصل العمل والصلاة طوال الليل، وينتهز فرصة نومه في لحظات ضئيلة من الأربع والعشرين ساعة. كان يتجوّل حافي القدمين في شوارع باريس، وقد أقام ذكرانية مرةً في ميناء مرسيليا، في المكان المحدد الذي اغتيل فيه ملك يوغوسلافيا ألكسندر، في وسط الطريق بين خطوط الترام. كان للالتزام بالمواعيد معنى ضئيل بالنسبة له. حائرين من سلوكه، اعتبره الأشخاص الأكثر تقليدية بين أبناء رعيته غيرَ مناسبٍ لمنصب الأسقف الاجتماعي وعمله الإداري. لكن، كما كان لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، كان أيضاً عملياً وواقعياً. بتجاهله التام للشكليات العادية، نجح حيث فشل الآخرون تماماً باعتمادهم على التأثير والخبرة الدنيويَّين - كما حدث عندما تمكن، على عكس كل الآمال وفي خضمّ نظام "الكوتا"، من تأمين قبول آلاف اللاجئين الروس المشردين في الولايات المتحدة الأمريكية.

في المحادثات الخاصة كان حادّاً ولكن بلطف. سرعان ما اكتسب ثقة الأطفال الصغار. ما كان مدهشاً بشكل خاص هو قوة صلاته الشفاعية. كانت عادته، كلما أمكن، الاحتفال بالقداس الإلهي يومياً، وغالباً ما كانت الخدمة تستغرق ضعف المدة الزمنية العادية، وكذلك كان حشد الذين يذكرهم بالاسم كلٌّ على حدة. وفيما كان

يصلي من أجلهم، لم يكونوا مجرد أسماءٍ مدرجةٍ في قائمة، بل كانوا دوماً أشخاصاً. رُويت لي قصة واحدة نموذجية. كان من عادته كل عام زيارة دير الثالوث المقدس في جوردانفيل، نيويورك. وأثناء مغادرته بعد إحدى هذه الزيارات، أعطاه راهب ورقة فيها أربعة أسماء لأشخاص كانوا يعانون من مرض خطير. لقد كان القديس يوحنا يتلقّى آلافاً وآلافاً من طلبات صلاة كهذه على مدار كل عام. عند عودته إلى الدير بعد حوالي اثني عشر شهراً، أشار على الفور إلى الراهب، وكانت دهشة هذا الأخير كبيرة، إذ أخرج القديس يوحنا قصاصة الورق نفسها من أعماق ثوبه، ممزقة ومبعثرة. قال: "كنت أصلّي من أجل أصدقائك، لكن اثنين منهم (أشار إلى أسمائهم) صاروا راقدين الآن، بينما تعافى الآخران". وهكذا كان بالفعل.

حتى من بعيد، شارك في هموم أبنائه الروحيين. أحدهم، الأب (فيما بعد رئيس الأساقفة) يعقوب، رئيس دير أرثوذكسي صغير في هولندا، كان جالساً في ساعة متأخرة في غرفته، غير قادر على النوم من القلق بشأن ما كان يواجهه من مشاكل مالية ومشاكل أخرى. في منتصف الليل رنّ جرس الهاتف. كان القديس يوحنا يتحدث من على بعد مئات الأميال. لقد اتصل هاتفياً ليقول إن الوقت قد حان لكي يخلد الأب يعقوب إلى الفراش: "نمِ الآن، ما تطلبه من الله سيكون بالتأكيد على ما يرام." [٤٩].

هذا هو دور الأب الروحي. وكما قال القديس برصنوفيوس، "أنا أهتمّ بك أكثر مما تهتم بنفسك".

†"The Spiritual Guide in Orthodox Chritianity", available at https://churchmotherofgod.org/articleschurch/articles-about-the-orthodox-church/2348-the-spiritual-guide-in-orthodox-christianity.html?showall=&start=5

1. On spiritual fatherhood in the Christian East, the standard work is by Irénée Hausherr, Direction spirituelle en Orient autrefois, Orientalia Christiana Analecta 144 (Rome: Pont. Institutum Studiorum Orientalium, 1955); English translation, Spiritual Direction in the Early Christian East, Cistercian Studies Series 116 (Kalamazoo, MI: Cistercian Publications, 1990). Consult also I. Hadot, "The Spiritual Guide," in A. H. Armstrong (ed.), Classical Mediterranean Spirituality: Egyptian, Greek, Roman (London: Routledge & Kegan Paul, 1986), 436-59; Graham Gould, The Desert Fathers on Monastic Community (Oxford: Clarendon Press, 1993), especially 26-87; Stephan B. Clark, Unordained Elders and Renewal Communities (New York/Paramus/Toronto: Paulist Press, 1976); John Chryssavgis, Ascent to Heaven. The Theology of the Human Person according to Saint John of the Ladder (Brookline, MA: Holy Cross Orthodox Press, 1989), 211-30; H. J. M. Turner, St. Symeon the New Theologian and Spiritual Fatherhood (Leiden: E. J. Brill, 1990). For a comparison between Climacus and Symeon, see my introduction to the English translation of Hausherr, Spiritual Direction, vii-xxxiii. On the Russian tradition, consult J. B. Dunlop, Staretz Amvrosy: Model for Dostoevsky's Staretz Zossima (Belmont, MA: Nordland, 1972); I. de Beausobre (ed.), Macarius, Starets of Optino: Russian Letters of Direction 1834-1860 (Westminster: Dacre, 1944); Archimandrite Sophrony(Sakharov), Saint Silouan the Athonite (Tolleshunt Knights: Monastery of Saint John the Baptist, 1991). For modern Greek examples, see Elder Paisios of Mount Athos, Athonite Fathers and Athonite Matters (Thessalonica: Holy Convent of the Evangelist John the Theologian, Souroti, 1999). On Romania, see [Hiermonk Seraphim Rose], Blessed Paisius Velichkovsky (Platina, CA: Saint Herman of Alaska Brotherhood, 1976); Romul Joantă (now Metropolitan Seraphim of Germany and Central Europe),

Roumanie: tradition et culture hésychastes, Spiritualité orientale 46 (Bégrolles: Abbaye de Bellefontaine, 1987); English translation, Romania: Its Hesychast Tradition and Culture (Wildwood, CA: St Xenia Skete, 1992).
45. "The Monastic Rule," in G. P. Fedotov, A Treasury of Russian Spirituality (London: Sheed & Ward, 1950), 95-96.
2. AP, alphabetical collection, Antony 37, 38 (PG 65:88B);
3. AP, anonymous collection, 244, 290: ed. Nau, ROC 14 (1909), 364, 376; tr. Ward, Wisdom, §§112,158 (34, 45).

٤. يذكر هذا القول إيفان تشيتيوريكوف في "الميتروبوليت سارافيم: الكنيسة الأرثوذكسية"، باريس: Payot، س ١٩٥٢، ص. ٢١٩.

٥. يوميات كاهن روسي، ص. ١٧, ٥٤.

For the Greek text of this apophthegma, see Evergetinos 1.20.11, ed. Victor Matthaiou, 4 vols. (Athens: Monastery of the Transfiguration of the Savior at Kronize Kouvara, 1957-66), 1:168-9; French translation in Lucien Regnault (ed.), Les Sentences des Pères du Désert, serie des anonymes (Sablé-sur-Sarthe/Bégrolles: Solesmes/Bellefontainc, 1985), 227.

٦. أنا أستخدم عبارة "المواهبية (الكارزمانية)" بالمعنى الضيق المعطى لها عادةً من الكتّاب المعاصرين. ولكن إذا كانت هذه الكلمة تشير (كما ينبغي) إلى شخص تلقى مواهب الروح القدس أو جاذبيتها، يكون الكاهن الخادم، المُسام بوضع اليد الأسقفية، على نفس القدر من المواهبية كالشخص الذي يتكلّم بالألسنة.

٧. في مجموعة أوقوال آباء الصحراء، يوجد إلى جانب ال"أبّا" ال ١٢٧ ثلاثة "أمّا" أو أمهات روحيات: النساء هن أقلية لكن لهن موقعهن في الييروندبكون "أقوال الآباء" (أنظر سلسلة الميتيريكون إعداد دير مار يعقوب الفارسي المقطع: المترجم)

See Sister Benedicta Ward, "`Apophthegmata Matrum,", Studia Patristica 16:2, Texte and Untersuchungen 129 (Berlin: Akademie Verlag, 1985), 63-66; Joseph M. Soler, "Les Mères du désert et la maternité spirituelle," Collectanea Cisterciensia 48 (1986), 235-50.
8. Life of Antony, 87 and 81; tr. Gregg, 94, 90.

٩. أتبع هنا التسلسل الزمني المقبول عموماً لحياة القديس سيرافيم. ولكن هناك أدلة تشير إلى أنه ربما بدأ خدمته كشيخ في وقت مبكر جداً، قبل انسحابه إلى الغابة في عام ١٧٩٤. ومع ذلك، لا يزال نمط الهروب والعودة ينطبق جيداً في حالة سيرافيم، وبأي حال في شروط عامة؛ لأنه، قبل عام ١٨١٣، كانت خدمته كشيخ مقيدة وأحياناً متقطعة تماماً.

See Vsévolod Rochcau, Saint Séraphim: Sarov et Divéyevo. Études et Documents, Spiritualité Orientale 45 (Bégrolles: Abbaye de Bellefontaine, 1987), 53-84.
10. Archimandrite Lazarus Moore, St. Seraphim of Sarov, 126.
11. AP, alphabetical collection, Theophilus 2; quoted above, 89.
12. AP, alphabetical collection, Antony 27 (84D); tr. Ward, Sayings, 7.
13. AP, alphabetical collection, Antony 24 (84B); see above, 86.

١٤. حول اغناطيوس وثيوفان، انظر مقدمة الرئيس خاريتن، "فن الصلاة، ١١-١٥". يعتبر القديس تيخن الزادونسكي مثالاً آخر عن إنسان اعتزل في نهاية حياته، بعد سنوات من الرعاية النشطة.

١٥. إذا اضطر رؤساء اللجان وغيرهم ممن هم في السلطة إلى الكتابة شخصياً كتابة عادية عن كل ما يريدون إيصاله، أفلا يمكنهم اختيار كلماتهم بعناية أكبر؟

16. See the perceptive discussion in Douglas Burton-Christie, The Word in the Desert: Scripture and the Quest for Holiness in Early Christian Monasticism (New York/Oxford: Oxford University Press, 1993), especially chapter 5; and compare Max Picard, The World of Silence (London: Flarvill Press, n.d.).

١٧. هنا يشير الكاتب إلى النسخة من كتاب "كيف نحيا مع الله" الجزء الأول، وهو غير المتوفر في العربية بعد [المترجم].

For the Greek text of this apophthegma, see Evergetinos 1.20.11, ed. Victor Matthaiou, 4 vols. (Athens: Monastery of the Transfiguration of the Savior at Kronize Kouvara, 1957-66), 1:168-9; French translation in Lucien Regnault (ed.), Les Sentences des Pères du Désert, serie des anonymes (Sablé-sur-Sarthe/Bégrolles: Solesmes/Bellefontainc, 1985), 227.
18. Archimandrite Lazarus Moore, St. Seraphim of Sarov, 217-20.
19. Op. Cit., 436-7.
20. AP, alphabetical collection, Poemen 8 (321C); tr. Ward Sayings, 167.
21. The Brothers Karamazov, tr. Richard Pevear and Larissa Volokhonsky (New York: Vintage Classics, 1991), 27.

22. See, for example, the story in AP, anonymous collection 293: ed. Nau, ROC 14 (1909), 377; tr. Ward, Wisdom, §16o (45-46).

ينجو الراهب ما أن يقول: "نجني أيها السيد في هذه الساعة بصلوات أبي".

23. Questions and Answers, ed. Schoinas §§208, 239; tr. Regnault and Lemaire, §§113, 239.

عن الأب الروحي كحامل للثقل، انظر أعلاه ص. ١١٩-٢٠، ولا سيما الاقتباسات من برصنوفيوس. بشكل عام، إن الأسئلة والأجوبة الـ ٨٥٠ التي يتألف منها كتاب برصنوفيوس ويوحنا، تُظهر لنا بوضوح لا يمكن العثور عليه في أي مصدر قديم آخر، بالضبط كيف كانت ممارسة خدمة الإرشاد الرعائي تتمّ في الشرق المسيحي.

24. The Brothers Karamazov, tr. Pevear and Volokhonsky, 320.

25. AP, alphabetical collection, Antony 16 (8oc); tr. Ward, Sayings, 4.

26. AP, alphabetical collection, John the Theban 1 (240A); tr. Ward, Sayings, 109.

27. "The Marriage of Heaven and Hell," in Geoffrey Keynes (ed.), Poetry and Prose of William Blake (London: Nonesuch Press, 1948), 187.

28. "A Wonderful Revelation to the World," in Archimandrite Lazarus Moore, St. Seraphim of Sarov, 197.

30. AP, alphabetical collection, Mark the Disciple of Silvanus 1, 2 (293D-296B); tr., 145-46.

31. Ibid., Joseph of Panepho 5 (229BC); tr., 103.

32. Ibid., Saio i (420AB); tr., 229. لاحقاً، أعاد الشيخ الأشياء إلى أصحابها.

33. AP, anonymous series 295: ed. Nau, ROC14 (1909), 378; tr. Ward, Wisdom, §162,(47).

حُفِظ الطفل بشكل عجائبي. لقصة موازية أنظر

AP, alphabetical collection, Sisoes 10 (394C-396A); tr. Ward, Sayings, 214;

قارن بإبراهيم واسحق.

34. See above, first section.

35. Quoted in Yves Harnant, Alexander Men: A Witness for Contemporary Russia (Torrance, CA: Oakwood Publications, 1995), 124.

36. AP, anonymous collection 340: ed. Nau, ROC 17 (1912), 295; tr. Ward, Wisdom, §209 (56-57).

37. C. G. Montefiore and H. Loewe (ed.), A Rabbinic Anthology (London: Macmillan,1938), §494.

38. Father André Scrima, "La tradition du père spirituel dans l'Église d'Orient," Hermès, 1967, No. 4, 83.

39. AP, alphabetical collection, Poemen 174 (364C); tr. Ward, Sayings, 191.

40. Ibid., Isaac the Priest 2 (224CD); tr., 99-100.

41. Questions and Answers, §§25,51,35.

42. Quoted by Thomas Merton, Spiritual Direction and Meditation (Collegeville, MN: Liturgical Press, 1960), 12.

43. Alexander Men, 124.

44. Buber, Tales of the Hasidim: The Early Masters, 256.

45. "The Monastic Rule," in G. P. Fedotov, A Treasury of Russian Spirituality (London: Sheed & Ward, 1950), 95-96.

46. ما عدا في البند ٤٦، حيث يرد أن باستطاعة الرهبان أن يعترفوا بخطاياهم بثقة، ليس بالضرورة إلى رئيس الدير، بل إلى واحد من الرهبان المتقدمين الذين اقتنوا مواهب روحية.

47. See I. Gorainoff, "Holy Men of Patmos," Sobornost 6:5 (1912), 341-44.

48. See my lecture, Through the Creation to the Creator, 5.

49. Bishop Sawa of Edmonton, Blessed John: The Chronicle of the Veneration of Archbishop John Maximovich (Platina, CA: Saint Heman of Alaska Brotherhood, 1979),104; Father Seraphim Rose and Abbot Herman, Blessed John the Wonderworker. A Preliminary Account of the Life and Miracles of Archbishop John Maximovitch, 3rd edn. (Plating, CA: Saint Herman of Alaska Brotherhood, 1987), 163.

سمعت قصة الأب يعقوب منه نفسه.